الكهنة المصريون وأسرة البطالمة

جينتر هلبل

تلخيص

مصطفى كمال عبد العليم

يتركز البحث حول علاقة الكهنة المصريين بأسرة الملوك البطالمة . وقد رأى الباحث أن يمهد لدراسته بتتبع ما كان من أمر هذه العلاقة فى العصر الفرعونى ، فأبرز النظرية المصرية عن وضع الملك الفرعون من الناحية الدينية فهوالمسؤول عن الحفاظ على نظام العالم بتأدية الطقوس الدينية لآلهة مصر . وكان ينيب عنه فى ذلك الكهنة فى معابد مصر كافة غير أن صورته وحده هى التى تظهر وتمثله وهو يقوم بأداء تلك الطقوس . وكان الكهنة مع ذلك هم أصحاب النفوذ وهم النخبة الممتازة التى تحمى المنجزات الحضارية لمصر . ولم يكن الكهنة يعملون كمجموعة متناسقة إلا فى عصر العمارنة . وبعد ذلك العصر تحرك الكهنة وكونوا تحالفاً جمع بين جماعات كهنة أمون فى طيبة ورع فى هليوبوليس وبتاح فى منف . وواجههم رمسيس الثانى باكساب نفسه وضع القداسة وأكثر من المنشآت الضخمة وكان لتمثاله فى معبد أبى سمبل نفس ضخامة تماثيل الآلهة . ولكن بعد عهده بدأ الوهن يدب تدريجياً فى قوة الملوك حتى أنه فى فترة الإضمحلال الثالثة إرتقى عرش مصر فى عهد الأسرة الثانية والعشرين ملوك من أصل ليبى وفى عهد الأسرة الخامسة والعشرين ملوك من أصل نوبى ومع ذلك حكموا كفراعنة أصلاء بفضل ما كان للكهنة المتعاونين معهم من سيطرة على نشاط المعابد وهيمنة على شؤون الدين . ومع ذلك فهم الذين حافظوا على الأسس التى قام عليها النظام الملكى الفرعونى . حقيقة أن الملك الفارسى الذى غزا مصر فى عام ٥٢٥ ق.م. أجبرهم على الإعتراف به ملكاً فرعونياً إلا أن بعض ملوك الفرس مثل دارا رأى أنه من الأفضل التفاهم معهم وكذلك فعل الإسكندر والبطالمة ثم الإمبراطور أغسطس الرومانى ، وعدم تجاهل حقيقة الأوضاع الدينية ووضع الكهنة المؤثر وإلا تعذر عليهم حكم مصر .

وعرض الباحث فى دراسته لعدد من النقاط :

اولاً : التعاون بين الكهنة المصريين والبطالمة وقسمه إلى :

١- أسرة الكاهن الأكبر للإله بتاح

٢- قرارات الكهنة

ثانياً : معارضة الكهنة لحكم البطالمة

١- أسرة الكاهن الأكبر للإله بتاح

أوضح الباحث أنه فى أواخر العصر الفرعونى إنتقل مركز الثقل الدينى إلى شمال البلاد، وخاصة الى منف . وكان الإسكندر قد قدم القرابين إلى ألهة هليوبوليس ومنف . وطبقاً للتقاليد الفرعونية إرتقى عرش الإله بتاح . وتبعه ملوك البطالمة فتوجوا فى منف مما يوحى بوجود تعاون بينهم وبين كهنتها وبدا هذا التعاون واضحاً فى أن أسرة الكاهن الأكبر للإله بتاح توارثت هذا المنصب ثلاثة قرون متصلة .

وأثمر هذا التعاون من إدخال الملوك البطالمة المقدونيين في الإحتفالات الدينية .

وثمة حادث بارز في علاقة الكهنة والأسرة البطلمية تمثل في تأليه بطليموس الثاني لأخته وزوجته ارسنوى الثانية بعد وفاتها في عام ٢٧٠ ق.م. (وليس عام ٢٦٨) والشاهد على ذلك لوحة منديس التي يرى فيها بطليموس الثاني وارسنوى الثانية وكانا قد قضيا نحبهما ، ومعهما بطليموس ولى العهد وهم يقدمون القرابين لتيس منديس الجديد والى حاربوقراطيس وتيس منديس المتوفى وحاتمحيت ربة منديس .

والاهم من ذلك ، الربة الجديدة ارسنوى الثانية التي ألهت حديثاً وهي تقدم القرابين إلى نفسها بإعتبارها ربة . وكان أخوها وزوجها بطليموس الثاني قد أصدر قراراً بتأليهها بعد وفاتها وبأن تعمم عبادتها في معابد مصر كافة . وقد ظهرت إلى جانب الإله بتاح في منف وإلى جانب الإله سبك في الفيوم . ولم يكن هذا القرار ليثير أى مشاكل للكهنة بل أن نسستي الثاني الكاهن الأكبر للإله بتاح (في النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) يحمل إلى جانب مناصبه الكثيرة لقب المعبر عن نبوءات الألهة بالنسبة لارسنوى الثانية . وفي منف شيد معبد لارسنوى الثانية ملاصق وعلى صلة بمعبد بتاح . وبذلك جمع هذا الكاهن بين الكهنوت المصرى وبين ملوك أسرة البطالمة المؤلهين .

وفي لوحة أخرى تظهر صورة لولدى الكاهن الأعظم للإله بتاح الكاهن أنيمحور الثاني ، وكان أبناً لنسستي وأصبح كاهناً لعبادة أسرة البطالمة حوالى منتصف القرن الثالث ق.م. إلى جانب كهانته للآلهة المصرية .

وكان بطليموس الأول قد أنشأ عبادة اغريقية للإسكندر وأضيف إليها منذ عصر بطليموس الثاني عبادة كل ملك بطلمي وزوجته فنشأت عبادة أسرة الإسكندر وكان كاهنها يلقب بإسم كاهن الإسكندر والإلهين المخلصين (سوتر) الإلهين والأخوين والإلهين الخيرين ... غير أنه إبتداء من عام ٢٣٨ ق.م. قرر الكهنة المصريون في قرار كانوب ، على عهد بطليموس الثالث أن كل كاهن يحمل لقب المعبر عن نبوءات الألهة أن يحمل لقب كاهن الإلهين الطيبين ويعني ذلك أن على هؤلاء الكهنة إقامة العبادة المصرية وطقوسها للملك بطليموس الثالث وزوجته . وقد اضيفت فيما بعد عبادة هذين الإلهين الزوجين وهما على قيد الحياة . وكانت القاب هذا الملك وزوجته الإغريقية تترجم إلى الهيروغليفية . وقد تطورت عبادة إسرة الإسكندر كما تطورت عبادة الأسرة البطلمية . ولكن على حين بقيت عبادة الإسكندر عبادة يونانية وتقام طقوسها في مقبرة الإسكندر فقط في الإسكندرية ، تطورت عبادة الأسرة البطلمية وأصبح ملوكها ألهه مشاركين في المعابد المصرية وكذلك لم يقبل الإسكندر أبداً بوصفه الهاً وبعد قرار كهنة منف في ١٥ من نوفمبر ٢١٧ ق.م. أدخلت عبادة الملك البطلمي وزوجته مستقلة عن عبادة الإسكندر بدليل أن كاهنها المعبر عن نبوءات الألهة كان هو نفسه الكاهن الأكبر للإله بتاح في منف . وهو أيضاً الكاهن المعبر عن نبوءات الألهة لارسنوى الثانية في معبدها في منف . وإبتداء من القرن الثاني زادت أهمية العنصر المصرى في البلاط الملكي وفي شغل الوظائف الإدارية .

وفى عصر بطلميوس الثامن توقفت العلاقة بين الكاهن الأعظم وبين الأسرة البطلمية . وفى عام ١٢٢ ق.م. تزوج بسنبتاح سليل انيمنحور الثانى من بيرنيكى ، ولعلها كانت من سيدات البلاط البطلمى . وبعد ذلك بجيلين إرتقى العرش فى عام ٨٠ ق.م. الملك البطلمى بطلميوس الثانى عشر ، وهو والد كليوباترة السابعة . ولم تعترف بها الروايات الأغريقية إبناً شرعياً لأبيه بطلميوس التاسع إذ لم تعرف أمه . ولعلها كانت مصرية من أسرة كبير كهنة بتاح . ولعل زيجات أخرى تمت بين أمراء من البيت البطلمى وسيدات من أسرة كبير الكهنة هذا .

وكان الملك بطلميوس الثانى عشر قد عين فى عام ٧٦ ق.م. بسنبتاح ، رغم حداثة سنه كبيراً لكهنة بتاح وجعله يتوجه ملكاً . وفى الوقت نفسه حول موارد المعابد الأخرى إلى معبد الإله بتاح فى منف . وواضح أن توثيق العلاقات مع أسرة الكاهن الأكبر لتعبر عن أن ذلك كان ضرورة سياسية لكل من الملك البطلمى وهذه الأسرة .

وفى نهاية عصر البطالمة كان كبير كهنة منف يصور جنباً إلى جنب مع الملك البطلمى وهذا يجعل من السهل تفهم حرص اوكتافيانوس (اغسطس) عند غزوه مصر على إدراك أهمية أسرة كاهن منف الاكبر . وقد وضح ذلك فى أنه أقام أحد افرادها كبيراً لكهنة منف فى العام الثالث من الحكم الرومانى لمصر ٢٨/٢٧ ق.م. وإن كان بعد موت هذا الكاهن لم تر الإدارة الرومانية ثمة ضرورة لتعيين كاهن أخر محله . وحوالى عام ٢٠ ق.م. إنطوت صفحة أسرة كهنة منف .

٢- قرارات الكهنة :

إستحدث البطالمة عقد إجتماعات سنوية لكهنة مصر . وكان يصدر عن هذه الإجتماعات قرارات تذاع بالكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية . جاءت على نسق قرارات المدن الإغريقية . وكانت هذه القرارات تتناول فى المقام الأول مسائل تتصل بالعقيدة الدينية وتنظيم المعابد وتزايد أهمية العنصر الوطنى فيها والمسائل المالية وحقوق الكهنة وإمتيازاتهم . وقد تتابعت منذ عصر بطلميوس الثانى وحتى بطلميوس السادس . وكانت تحقق بعض أهداف الملك البطلمى وقد إستغل البطالمة نفوذ الكهنة المصريين لدعم حكمهم وليظهر الملك ولاء الكهنة لشخصه لتثبيت هذا الحكم ومقاومة إحتمال ظهور معارضه لأسرتهم . وقد وضح فى قرار كانوب (٢٣٨ ق.م) عندما كانت حكومة بطلميوس الثالث القوية تواجه مقاومة من الكهنة . إتخذ هذا الملك قراراً بإنشاء قبيلة جديدة ضمت الكهنة المعبرين عن نبوءات الألهة . وعن طريق هذه القبيلة كان نفوذ الملك ينمو ويتزايد . وبعد انتصار بطلميوس الرابع فى رفح صدر قرار رفح ، وهو مسجل على لوحة تصور الملك ممتطياً جواده وهو يصوب رمحه إلى خصمه الملك انطيوخوس الثالث وإن كانت صورة هذا الملك قد مُحيت . وقد اظهر الملك عرفانه بجميل الهة مصر بالمنح السخية التى جاد بها على المعابد والتى اوجد لها موارد جديدة . ومقابل ذلك أسبغ عليه الكهنة أيات التشريف والتكريم وأقاموا له عبادة بوصفه حورس .

وإجتمع الكهنة مرة أخرى في منف عام ١٩٦ ق.م. لإصدار القرار المشهور المنقوش على حجر رشيد بعد تتويج بطلميوس الخامس بيوم واحد . وكان ذلك في ظروف غير مواتية . إذ فقد البطالمة ممتلكاتهم الخارجية في سوريه وفلسطين والأناضول وتراقيا . وثمة ثورة مشتعلة في طيبة حيث نجح أحد المصريين في أن يحكم بوصفه فرعوناً . ولذلك كانت مساعدة الكهنة أمراً ضرورياً لإنقاذ حكم ملك حدث وإنهاء فوضى دينية إستمرت ثماني سنوات . ومقابل ذلك حصل الكهنة على مجموعة من الإمتيازات وإن كان القرار قد أظهر أنها منحاً من الملك . وهكذا نرى أنه في القرن الثالث وأوائل الثاني كان الموقف السياسي هو الذي يحدد العلاقة بين الملك والكهنة والتي أسفر عنها قراراتهم في السنوات ٢٣٨ ،٢١٧ ، ١٩٦ ق.م. والمهم أن بطلميوس الخامس صار ملكاً فرعوناً حقيقياً وفقد كل ما كان يظهره كملك هلينستي .

وفضلاً عن ذلك فأن هذه القرارات أظهرت الكهنة كهيئة مستقلة لها وضعها في النظم القانونية وبوصفها تصدر قرارت لها هذه الصفة القانونية ... ولذلك يمكن القول بأن النظر في قرارات كانوب ورفح ونص حجر رشيد يوحي بأن ثمة تطور قد طرأ على علاقة الملك بالكهنة .

ثانياً - معارضة الكهنة :

إذا كان كهنة الشمال ومنف على إتصال وثيق بملوك البطالمة إلا أن كهنة الجنوب إحتفظوا لأنفسهم بقدر من الإستقلال . ولا يعنى ذلك أن نفهم أن البطالمة أهملوا إقليم الجنوب في سياستهم الدينيه بل أنهم حاولوا أن يحملوا هذا الجنوب على الإعتراف بهم ملوكاً فراعنة طيبيين وشرعيين . ولا ينبغي أن ننسى إنشاء المعابد الضخمة في فيلة وإدفو وكوم أمبو و إسنا ودندرة ودكة في النوبة ليتأكد لنا أنه لولا دعم البطالمة لما كانت هذه المعابد قد أقيمت . إلى جانب قيام البطالمة بتشييد معابد في الجنوب . وأشهر ما أنعموا به في الجنوب ، منحهم اراضى إقليم ما يسمى بارض الإثنى عشر سخونيوى Dodecasch oenus في إقليم النوبة السفلى بين اسوان ووادى علاقى لإيزيس ربة فيلة ولابد وأن تكون هذه المنحة قد جاد بها بطلميوس الثاني وهي مسجلة على لوحة تحمل اسم هذا الإقليم . وقد أكد فيها بطلميوس السادس في عام ١٥٧ ق.م. تخصيص الضرائب المحصلة في أرضه إلى معبد إيزيس في فيلة . وتظهر المناظر المنحوتة على اللوحة بطلميوس السادس وزوجته كليوباتره الثانية وهما واقفان في حضرة عدد من الآلهة .

وقد عارض كهنة خنوم في الفنتين منح كهنة إيزيس في فيلة هذه الامتيازات . وهذا ما تظهره اللوحة المعروفة بإسم لوحة المجاعة في جزيرة سهيل Sehel المؤرخة بالسنوات الأخيرة من حكم بطلميوس الخامس وقد ذكر فيها أن ثمة مجاعة حدثت في عهد الملك زوسر وأستمرت سبع سنين وذكر فيها أيضاً أن هذا الملك خصص لمعبد خنوم ارض الإثنى عشر سخونيوى ولم تثمر معارضة كهنة خنوم عن شئ ذلك أن الملك وخلفاءه لم يستجيبوا لطلباتهم .

وقد حدث عدد من الإنتفاضات او الثورات الوطنية ضد نظام الحكم البطلمي إلى جانب رفض مجموعات من الكهنة لهذا الحكم . وقد قامت الثورات في الدلتا في عصر بطلميوس الثالث والرابع والخامس راح ضحيتها الفلاحون التعساء وبعض الكهنة إذ كان هؤلاء يهاجمون معابدهم.

وقد قاوم الكهنة حكم الفرس واستمرت كراهيتهم للحكم البطلمي وعبرت عنها بعض النصوص الأدبية الديموطيقية وهي تتحدث عن معاداة المصريين للحكم الفارسي في القرن الرابع ولكنها تتنبأ بظهور ملك مصري في هراقليوبوليس سيضع حداً لحكم الملوك الإغريق . وهذه النبوءة تعبر عن المعارضة للحكم البطلمي التي شاعت عند طائفة من الطبقة العليا ، وقد حدث ذلك بالفعل وإن لم يكن تحركاً كاملاً في عام ٢٠٦ ق.م. عندما نجح هرينونيفر Herwenfer في تقلد السلطة في طيبة بعد نجاح ثورة تزعمها وتم على اثر ذلك طرد الوحدات العسكرية البطلمية ، وقد خلفه عنخ وينيفر Anch Wennefer وقد اشار كلاهما في القابهما إلى إيزيس وإلى أمون رع رب طيبة . وهذا يعكس رفضهما لموقف كهنة بتاح بمنف ، وبعد هزيمة عنخ ونيفر في عام ١٨٦ ق.م. دعا بطلميوس السابع الكهنة إلى إجتماع عقده في الإسكندرية وصدر عن الكهنة قرار يعرف بإسم قرار فيلة الثاني يعلنون فيه أن هذا الزعيم المصري عدو للآلهة طبقاً لمفهوم الملكية التي كان يحكم البطالمة بمقتضاها . ونجح الكهنة في أن يجدوا حلاً وسطاً بأن يلتمسوا من الملك العفو عنه وقبل الملك هذا الإلتماس . ولم تنته ثورات الجنوب ، إذ نجح مصري آخر اسمه حارسيس في أن يكون فرعوناً لبعض الوقت في طيبة . وربما كان منتمياً إلى دوائر الكهنة وقد دعمه كهنة أمون مالياً وهذا ما يشير إلى معارضتهم للحكم البطلمي .

ويخلص صاحب البحث إلى عدد من النتائج أوضح فيها أن كهنة مصر لم يكونوا جميعاً معارضين للحكم البطلمي وأن ملوك البطالمة مارسوا سياسة دينية ناجحة لعدة عقود ، التي قامت على تأكيد شرعية حكمهم كفراعنة إلى جانب التعاون مع كبار الكهنة وخاصة في شمال البلاد وأن الكاهن الاكبر للإله بتاح هو المسؤول عن إكساب الإسكندر صفة الفرعون وإكساب البطالمة هذه الصفة نفسها . ويشير الباحث أيضاً إلى أن كثيراً من مصادر البردي والنقوش تثبت قبول البطالمة في العبادة الملكية المصرية القديمة وإلى إيجاد عبادات أسرية وطنية في المعابد المصرية للزوجين الملكين البطلميين الأحياء والأموات على حد سواء .

ويشير الباحث أيضاً إلى أن أنيمحور الثاني سبق إلى إدخال عبادة بطلميوس الرابع وزوجته في منف قبل إدخالها إلى الإسكندرية ليقترنا بعبادة الإسكندر .

ومن نتائج هذا البحث أيضاً قيام علاقات أسرية بين أسرة البطالمة وأسرة كهنة بتاح مما يظهر التعاون بين ممثلي الكهنوت المصري والملك .

ويبرز الباحث ظاهرة مقاومة الجنوب وخاصة في طيبة للحكم البطلمي والتي أظهرت ثلاثة من الزعماء المصريين هيرونيفر وعنخ و نيفر وهرميسيس في عام ١٣٠ ق.م. ويبرز أيضاً أن تعاون الكهنة المصريين مع الحكم البطلمي لم يكن بسيطاً أو سهلاً فهناك ثورة نشبت بين عامي ٩٠ و٨٨ في طيبة . ولكن ماثيريس على الضفة الغربية من النيل جنوب طيبة إستمرت موالية للبطالمة وأن مقاومة تلك المدينة للثورة في طيبة كانت بقيادة كهنة مصريين .

ويختم الباحث دراسته بالإشارة إلى أن الموقف تغير مع الغزو الروماني لمصر إذ لم تكن الإمبراطورية الرومانية لتعتمد على الكهنة المصريين كما حدث بالنسبة لحكام أجانب سبقة إلى غزو مصر .